الدكتور أحمد الطيب

والطرق الصوفية

قبل أن يصل الدكتور أحمد الطيب إلي كرسي شيخ الأزهر في ١٩ مارس ٢٠١٠، وعبر مناصبه الكثيرة في الجامعات العربية والإسلامية ودار الإفتاء، لم يكن يخفي صوفيته، بل كان يتحدث عنها بأريحية شديدة، ولم تكن لديه أدني مشكلة في أن يتحدث عن ساحة الشيخ الطيب نسبة إلي جده الكبير، هي تلك الساحة التي يؤمها مريدون من كل مكان ليتبركوا بشيوخ ورجال الطريقة الخلوتية.

لكن وبعد أن صعد الدكتور الطيب إلي كرسي المشيخة، وجد أن تاريخه الصوفي يقف في مواجهته، بعد أن استخدمه البعض للنيل منه، وخاصة أن هناك جماعات سلفية عديدة عاملة في مصر تناصب الصوفيين العداء، بل وتتهمهم باتهامات تصل بهم إلي الخروج من الملة.

كان لابد للدكتور أحمد الطيب أن يتحدث وبالفعل تحدث، كان مع عبد اللطيف المناوي في برنامجه «وجهة نظر»، اقتحم الموضوع مباشرة ودون مقدمات، اعترف بصوفيته ولم ينكرها، لكنه صحح معلومة انتشرت في الصحف بعد توليه المشيخة، وهي أنه نفسه شيخ الطريقة الخلوتية التي تأسست في أسوان علي يد جده الشيخ أحمد الطيب الكبير، وأن والده تولي أمور الطريقة من بعده، وعندما توفي أخذ الدكتور الطيب أمور الطريقة علي عاتقه.

أقر الدكتور الطيب بأنه ليس شيخا للطريقة الخلوتية، لكن شيخها هو شقيقه محمد الطيب، وهو الذي يتابع شئون الساحة بدقة، وقد كان هذا طبيعيا، فلم يتفرغ الدكتور الطيب أبدا في حياته للطريقة بل كانت لديه أمور أخري تشغله، ولذلك كان من الصعب أن يتولي مشيخة الطريقة، وهو ما يستدعي أن يكون متفرغا تماما، لا يشغله عنها شيء.

لقد تخرج الشيخ الطيب في جامعة الأزهر وحصل علي ليسانس العقيدة والفلسفة في العام ١٩٦٩، وحصل علي الماجستير في العام ١٩٧١ ثم الدكتوراه والتي عاش خلال إعداده لها بباريس حيث درس في جامعة السوربون لمدة عشرة شهور في العام ١٩٧٧، وبعدها انخرط في التدريس في الجامعة، ولم يقتصر تدريسه علي جامعة الأزهر في مصر، لكنه سافر إلي عدد من الجامعات في الرياض وقطر والإمارات وباكستان.

وخلال رحلته العلمية ألف مجموعة كبيرة من الكتب، من بينها "الجانب النقدي في فلسفة أبو البركات البغدادي، تعليق علي قسم الإلهيات من كتاب تهذيب الكلام للتفتازاني، مدخل لدراسة المنطق القديم، مباحث الوجود والماهية من كتاب المواقف، مفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الماركسية، أصول نظرية العلم عند الأشعري، مباحث العلة والمعلول من كتاب المواقف".

هذا بخلاف مشاركته الدائمة والمستمرة في العديد من المؤتمرات الدولية التي كانت تناقش أمور حوار الأديان والإنسانية، ومن أهم الدول

التي زارها علي هامش هذه المؤتمرات سويسرا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا.

هذا الجهد الهائل لم يدخر للدكتور الطيب وقتا لأن يتولي منصبا في الطريقة، ولذلك تركها لشقيقه محمد الطيب، لكن ذلك لم يمنع أن يكون الدكتور الطيب حاضرا وبقوة علي أرضها خاصة في أسوان، وليس أدل علي ذلك من الصورة التي يعرفها الجميع ويقبلون علي شرائها من الساحة، بعضهم يحصل عليها ورقية، والبعض الآخر يحصل عليها في برواز.

الصورة يقف في خلفيتها مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم بقبته الخضراء، وأعلاها الآية الكريمة من سورة الأحزاب"بسم الله الرحمن الرحيم ..إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.. صدق الله العظيم"، واختيار الآية مقصود لأن عائلة الدكتور أحمد الطيب تنتهي في نسبها الكريم إلي النبي صلي الله عليه وسلم، وعليه فهم من الأشراف ومن آل البيت الذين نزلت في حقهم هذه الآية الكريمة.

علي جانبي الصورة من أعلي إلي اليسار صورة الجد الشيخ أحمد الطيب الكبير، وهو من جلب الطريقة الخلوتية وأدخلها إلي أسوان، بعد أن قابل الشيخ أبو بكر الحداد الذي كان عالما في الأزهر، وشيخا للطريقة الخلوتية، وقد ظهرت علي يدي بعض العلماء في تركيا، وكان الشيخ الحداد هو من أتي بها إلي مصر.

وعلي الجانب الأيمن للصورة والد الدكتور الطيب الشيخ محمد أحمد الطيب، والذي تولي أمور الطريقة بعد وفاة أبيه، كان والد شيخ الأزهر يخطط لحياته بشكل مختلف تماما، فقد درس في الأزهر القديم، قبل أن يتحول إلي معاهد وجامعات، كان من تلامذة شيوخ العمود في الجامع الأزهر، وعندما أراد أن يتأهل إلي الامتحان طلب منه والده أن يعود مرة ثانية إلي البلد، كي يعلم الناس.

استجاب الوالد لأوامر الجد، لم يكن أمامه أي فرصة للخروج عن الطاعة، فهناك تقاليد في عائلة الطيب لا يمكن لأحد أن يكسرها، وباعتراف الدكتور الطيب نفسه أن جده كان صارما للغاية، ولما عاد والده شيخ الأزهر إلي البلد كي يعلم الناس، جلس وآنس حياة العزلة والعلم، ولما مات أبوه أصبح شيخا للطريقة.

يعتز شيخ الأزهر اعتزازا خاصا وخالصا بوالده، لا يتحدث عنه إلا بقوله: كان والدي وأستاذي، عندما تفتحت عينا أحمد الطيب علي الحياة وجد البيت الذي يعيش فيه يقع إلي جوار المسجد والساحة التي يؤمها الناس في كل وقت، وإن كانت هناك طقوس خاصة يوم الجمعة، شب الطيب علي أوراد وترانيم وأذكار الذاكرين والعباد والمنتفعين، وهو ما تأثر به، لكن هذا لم يحمله علي أن يتولي مشيخة الطريقة بل تركها لشقيقه الشيخ محمد، الذي يظهر في الصورة إلي يمين الدكتور الطيب، وفي قلب الصورة يظهر الدكتور أحمد الطيب بردائه الأزهري.

ذكر الدكتور الطيب بأنه لم يتول مشيخة الطريقة بعد والده لأنه لم يمتلك مقومات مشيختها علي الأقل من حيث الوقت والتفرغ، لكن هذا لم يمنع الدكتور الطيب من أن يقضي إجازاته في بلده، حيث يرتدي الزي الصعيدي الذي يتميز به، وبعد صلاة الجمعة يجلس في صدارة الساحة ليفصل بنفسه بين المتخاصمين والمتقاضين، ويشهد الجميع أن ساحة الشيخ الطيب استطاعت أن تحل مشاكل كثيرة ظل أصحابها يترددون علي المحاكم سنوات طويلة دون جدوي.

قبل أن تأتي الطريقة الخلوتية إلي مصر، كانت تعاني مما تعاني منه الطرق الصوفية الأخري، والتي تجلعها هدفا للهجوم من الجماعات السلفية والوهابية، فيقال إن في أورادها كلمات سريانية مطلسمة غير مفهومة علي الإطلاق، وأن بهذه الأوراد استغاثة مباشرة بالرسول صلي الله عليه وسلم، وهو ما يعتبره البعض تجاوزا في حق الله سبحانه وتعالي، بل إن من بين الأوراد ما يستغيث فيه مريدو الطريقة بشيخها الذي يشار إليه بأنه أبيض الوجه، يقولون:"مدد يا أبيض الوجه .. سيدي مدد مدد."

لكن عندما دخلت الطريقة الخلوتية مصر اختلفت الأمور تماما، فهي وكما يقرر شيخ الأزهر مرتبطة ارتباطا كليا وجزئيا بالشريعة الإسلامية، بما تقره الشريعة تقره الطريقة، وما ترفضه الشريعة ترفضه الطريقة ولا تقترب منه، وإذا كان هناك ما يشغلها هو علم التجرد الروحي، فهي لا تغرق في الأوراد والأذكار بل تقوم في الأساس علي حل مشاكل الفقراء وغير الفقراء. هل هناك دليل علي ذلك؟

بالطبع هناك أكثر من دليل، فرموز هذه الطريقة في مصر يقف علي رأسهم الشيخ أحمد الدردير، وهو الرجل الذي يعتز به أحمد الطيب كثيرا، ويعتبره شيخه ومعمله، فهو فقيه مالكي وأصولي محقق وصوفي مشهور، وقد تربي علي أيدي عدد كبير من شيوخ الطرق الصوفية، فقد أخذ العلم عن الشيوخ أحمد الصباغ والملوي والحفني، حتي صار من أكابر شيوخ الطريقة الخلوتية.

وعلي عكس الكثيرين من شيوخ الطرق الصوفية، فإن أحمد الدردير كان عالما، وله مؤلفات كثيرة منها:شرح المختصر وهو شرح علي أحد متون الفقه المالكي، وأقرب المسالك لمذهب مالك، ومتن الخريدة البهية في علم التوحيد، وتحفة الإخوان في آداب أهل العرفان في التصوف، والمورد البارق في الصلاة علي أفضل الخلائق، والتوحيد الأسني بنظم الأسماء الحسني، وتحفة السير والسلوك إلي ملك الملوك، والعقد الفريد في إيضاح السؤال عن التوحيد.

اعتزاز الطريقة الخلوتية بالشيخ أحمد الدردير في معظمه يأتي لأن الانتساب إليه يمثل قيمة للطريقة ولكل من ينتسب إليها، فهو عالم كبير من علماء الأزهر، بينما يأتي كثيرون من مشايخ الطرق الصوفية علي شاكلة المجاذيب الذين لا علاقة لهم بالعلم، ويلجأون إلي تغطية ضعفهم في العلوم الشرعية بما يدعون أنها معجزات تأتي علي أيديهم، وهو ما يجعل الكثيرين يعتبرون ما يقوم به مشايخ الطرق الصوفية ما هو إلا نصب واحتيال علي الناس.

أصل لقب الدردير يأتي من أن قبيلة من العرب نزلت ببني عدي في الصعيد، وكان كبيرهم يدعي الدردير ، ومنها حصل الشيخ أحمد علي لقبه تفاؤلا به وجلبا للبركة، ووصل به الأمر إلي أن أصبح شيخا علي المالكية وفقيها وناظرا علي وقف الصعايدة وشيخا علي الرواق بالأزهر، بل شيخا علي أهل مصر بأسرها في وقته حسا ومعني، فكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر كل من الراعي والرعية، ويصدع بالقول مع صولة الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم وله في السعي علي الخير وإليه يد بيضاء.

وتدلنا قصيدته التي تحمل اسم الأسني بنظم الأسماء الحسني، علي أن ما يقال من استعانة أبناء الطريقة الخلوتية بغير الله لا صحة له، بل هو إدعاء كاذب.

يقول أحمد الدردير في قصيدته: تباركت يا الله ربي لك الثنا فحمدا لمولانا وشكرا لربنا/بأسمائك الحسني وأسرارها التي أقمت بها الأكوان من حضرة الغنا/فندعوك يا الله يا مبدع الوري يقينا يقينا الهم والكرب والعنا/ويارب يا رحمن هبنا معارف ولطفا وإحسانا ونورا يعمنا/وسر يا رحيم العالمين بجمعنا إلي حضرة القرب المقدس واهدنا/ويا مالك ملك جميع عوالمي لروحي وخلص من سواك عقولنا/وقدس أيا قدوس نفسي من الهوي وسلم جميعي يا سلام من الضنا/ويا مؤمن هب لي أمانا وبهجة جناني يا مهيمن بالمني/وجد لي بعز يا عزيز وقوة وبالجبر يا جبار بدد عدونا، وكبر شئوني فيك يا متكبر وياخالق الأكوان بالفيض عمنا.

ويظل الشيخ أحمد الدردير علي حاله في التغزل في أسماء الله الحسني حتي يصل إلي نهاية قصيدته التي يقول فيها: وصل وسلم سيدي كل لمحة علي المصطفي خير البرايا نبينا/وصل علي الأملاك والرسل كلهم والهمو والصحب جمعا وعمنا/وسلم عليهم كلما قال قائل تباركت يا الله ربي لك الثنا.

الكثير من الأوراد والأذكار التي يرددها أبناء الطريقة الخلوتية ورغم أن كثيرين لا يعرفونها، فهي تظل وكأنها سر من أسرار الطريقة، إلا أن كثيرين ممن ينخرطون فيها يؤكدون أنه لا تقديس فيها لغير الله، أو أنهم يستغيثون بغير الله، وبذلك فهم لا يقعون أبدا في الأخطاء التي تقع فيها الطرق الصوفية الأخري، ولذلك لم يكن غريبا أن يؤكد الدكتور أحمد الطيب انتماءه لهذه الطريقة.

بل لن يكون غريبا أن نعرف أن هناك أسماء لعلماء أفاضل درسوا في الأزهر وكانوا من أبناء الطريقة الخلوتية، ومن بينهم الشيخ إسماعيل صادق العدوي الذي توفي وهو إمام الجامع الأزهر وكانت خطبه تحظي بحضور كثيف للغاية.

ومن الصدف أن الشيخ صادق العدوي ظل إماما وخطيبا لمسجد سيدي أحمد الدردير بحي الباطنية قبل أن يتولي عمله في الجامع الأزهر، كان بيته في حي الباطنية مكونا من ثلاثة طوابق، الدور الأول مكون من ساحة ومضيفة للمريدين، الذين كانوا يترددون عليه كأحد رموز وعلامات الطريقة الخلوتية، وقبل وفاته مباشرة ترك منزله في حي الباطنية وانتقل

إلي بيت صغير وأوقف البيت الكبير بطوابقه الثلاثة كمعهد أزهري، وانتقلت المجالس التي كان يعقدها للطريقة الخلوتية إلي مسجد سيدي أحمد الدردير.

إن الطريقة الخلوتية في أصلها من الخلوة، وهو معني روحي إيجابي، ففي الخلوة يتعرف الإنسان إلي ربه بعيدا عن زينة الدنيا وشهواتها، لكن التجربة المصرية مع الطريقة الخلوتية، تؤكد أن الذوق المصري في التدين لا يزال قائما وفاعلا، فالخلوة لم تمنع شيوخ ورجال الطريقة الخلوتية من أن ينزلوا إلي الشارع وأن يحلوا مشاكل الناس.

لقد كانت لبوذا كلمة هائلة ومختصرة ومعبرة، وهي «ليس الراهب راهب الصومعة، لكن الراهب هو راهب المدينة»، فالذي يريد أن يترهبن، لا يجب أن يستسهل الأمر ويعزل نفسه في صومعة بعيدا عن الناس ومشاكلهم وهمومهم، لكن الراهب الحقيقي هو الذي ينزل إلي الشارع ويعيش بين الناس في المدينة، ويقترب من مشاكلهم ويقوم بحلها.

الدكتور أحمد الطيب وأشقاؤه من أهل بيت الطيب تعاملوا مع التصوف علي طريقة بوذا في الرهبنة، فالصوفي عندهم ليس الذي يعيش في الخلوة بعيدا عن الناس، لكنه الذي ينزل إلي المدينة ويشتبك مع مشاكل الخلق، فإن تحل مشكلة لمسلم أفضل عند الله من أن تظل معتكفا عاما كاملا في خلوتك.

ولذلك فإن كل المداخل التي يريد البعض من أبناء الجماعات الإسلامية السلفية الدخول منها إلي الدكتور أحمد الطيب لهز صورته أو جعله لا يستحق منصبه لأنه رجل صوفي لا مكان لها، بل إنها جميعا بارت،

لأن معرفة حقيقة هذه الطريقة تجعلنا نتمسك بهـا، فلـيس كـل الطـرق الصوفية غارقة في الخرافات والدجل والشعوذة وادعاء الإتيان بمعجزات لا أساس لها وما أنزل الله بها من سلطان، لكن هناك طرقا وضـع الـدكتور الطيب أيدينا عليها تعلي من شأن العلم والاجتهاد، فكثير من أبنائها علمـاء كبار وكان لهم دور كبير في تطوير الأزهر والصعود به وبدوره.

آل الطيب قادرون علي حل المشاكل من الأساس لسمعتهم الطيبـة وقدرتهم علي التواصل مع الناس، وهو ما يجعلني أذهب إلي أن الطريقـة الخلوتية التي ينتمي إليها شيخ الأزهر ليـست طريقـة صـوفية محـضة ومجردة، لكنها يمكن أن يكون لها تصنيف جديد، فهـي طريقـة صـوفية اجتماعية.

إنها صوفية لأنها تعلي من الجانب الروحي، لها حضراتها وأورادها وأذكارها التي يرددها الذاكرون والعباد الذين يؤمونها من كل مكان، تعلـي من شأن الزهد، الدكتور الطيب نفسه أكد أن كل المناصب التي حصل عليها لم يسع إليها بل هي التي لاحقته، كان زاهدا فجاءته الدنيا طائعـة دون أن يريد ذلك، وهي طريقة اجتماعية من ناحية أنها تحتك بحياة الناس وتحـل مشاكلهم وتتواصل معهم، دون أن تري في ذلك ما يفـسد عليهـا حالتهـا الروحية.

لقد وقع من هاجموا الدكتور الطيب لصوفيته في خطأ بالغ، فهـذا الرجل يمكن أن ينفع الله به الإسلام، فإذا كنا ننتظر منـه إصـلاحا عامـا

وشاملا للأزهر، فإننا ننتظر منه أن يضع الطرق الصوفية علي الطريق الصحيح، وشئ من هذا مهما كان كبيرا أو عظيما فإنه ليس بعيدا علي الله.

الطرق الصوفية تحتفل بتنصيب الطيب شيخا للأزهر

استقبل مشايخ وأتباع الطرق الصوفية في مصر القرار الجمهوري بتعيين الدكتور أحمد الطيب شيخًا للأزهر بالفرح والترحيب البالغ بصفته شيخًا من مشايخ الصوفية، حيث ينتمي للطريقة الخلوتية ويعد واحدًا من سلالة الطيبين الذين لهم مقر صوفي كبير في القرنة بالأقصر.

إن مشايخ الصوفية وأتباعهم ومريديهم قد استقبلوا قرار اختيار الدكتور «الطيب» بالفرحة العارمة وقرروا إقامة احتفال كبير في مقر الطريقة العزمية للاحتفال باختيار أحد مشايخ الصوفية شيخًا للأزهر سيتم خلاله تكريم «الطيب»، مشيرًا إلي أن موعد الحفل سيتم الاتفاق عليه مع شيخ الأزهر، وقال أبو العزايم: كنا واثقين من أن منصب شيخ الأزهر سيشغله هذه المرة أحد المنتمين للصوفية خاصة أن جميع الأسماء التي تردد أنها مرشحة لهذا المنصب من أبناء الصوفية مثل الدكتور علي جمعة والدكتور أحمد عمر هاشم وهما أيضًا من الصوفية .

ومتوقَع الكثير من شيخ الأزهر الجديد الذي يعتبر إمامًا للمسلمين السُّنة الذين يزيد عددهم علي مليار مسلم في أنحاء العالم .

إن هناك ضرورة أن يعمل الشيخ الجديد علي تخفيف حدة الخلافات بين أتباع المذاهب الإسلامية خاصة الخلاف الحاد بين السنة والشيعة وأن يعمل علي تطوير الخطاب الإسلامي ونشر الفكر الوسطي وأن يتعاون مع إخوانه من علماء الأزهر في النهوض بالأزهر والارتقاء برسالته وتوحيد صفوف المسلمين في جميع أنحاء العالم.

ضرورة أن يعمل "الطيب" علي التقريب بين السنة والشيعة واستكمال ما بدأه شيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد الحليم محمود في هذا الصدد، كما طالب شيخ الأزهر الجديد بالعمل علي إنهاء الخلافات بين الصوفية والمنتمين للتيارات السلفية والعمل علي ألا يصل الخلاف بين الطرفين إلي درجة تكفير كل طرف للطرف الآخر، وناشد شيخ الأزهر التدخل للم شمل الإخوة المتنازعين داخل البيت الصوفي بعد اندلاع نزاع منذ أكثر من عام ونصف العام علي كرسي شيخ مشايخ الطرق الصوفية .

إن انتماء شيخ الأزهر للطرق الصوفية، لا يعيبه لأنها ليست عيبًا أصلا.. «الطيب» سيضيف إلي الأزهر بإنتمائه إلي الصوفية خاصة أنه أستاذ عقيدة وفلسفة ولا يمكن أن يقبل الدجل أو الخرافات التي توجد في بعض الطرق الصوفية وقد سبق وكان الشيخ عبد الحليم محمود شيخًا للأزهر وكان قطبًا من أقطاب الصوفية وكان الجميع يشهد بنجاحه .

و«الطيب» عالم جليل نأمل أن يشهد الأزهر في عهده تطوراً إلي الأفضل ويعيد صورته المشرقة واحترامه الذي فقده وأن يعينه الله عليه .

وقال الدكتور القصبي زلط- عضو مجمع البحوث الإسلامية: لا حرج في التصوف الذي يعني الزهد لله تعالي أما التصوف المقصود به التمايل والرقص وما شابه ذلك فهو ادعاء للتصوف وليس تصوفاً حقيقياً، والدكتور «الطيب» لا يتبع هذه الطريقة .

ويقول شوقي عبد اللطيف- وكيل وزارة الأوقاف: الصوفية ليست عيباً ولا حراماً وانتماء الطيب لها لا يعيبه، مشيراً إلي أن إضافات شيخ الأزهر الجديد ستكون ملحوظة في ظل الدعوة والعمل علي التجديد.